ما أشبه الليلة بالبارحة :

غدر يهـــود

للأستاذ عمر عوده الخطيب

[بات في الغار الذي يحلل رؤوس العرب ، وبات في الغار الذي يحلل رؤوس اليهود ، لمادة فرق الحيال البدع ، ومداداً فياضاً لقلم الخالق]

الأستاذ الزيات

أذّن بلال للفجر ، وأرسل صوته الندي العذب بنـــداء الإسلام ، وهرع المسلمون للمسجد لأداء الصلاة خلف رسول الله وعلى وجوههم سحابة حزن عميق ، وفي عيونهم ذبول هم دفين ، فلما التأم عقدهم ، جلسوا في المسجد ينتظرون مقدم الرسول ، وقد اشتد شوقهم لسماع حديثه الجميل الذي يُبرد غلة أفئدتهم ، ويزيل غمة نفوسهم ... ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى دخل المسجد ، وسلم على من فيه ، ثم تقدم للصلاة واصطف حوله الأصحاب ، فركع الأولى ، ثم قام من الثانية ، ورفع يديه بالقنوت ، ودعا على قبائل (رعل وذكوان وسليم) الذين قتلوا القراء في (بئر معونة) ونكلوا بهم شرّ تنكيل ... وأمّن المسلمون على دعائه ، وقد نال منهم مقتل إخوانهم كل منـال ، ونزلت عليهم بمقتلهم أفدح كارثة ، وأنكى مصيبة ... ولم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى ما وجد على قتلى (بئر معونة) لأنه لم يرسلهم لقتـال ، وإنما أرسلهم ليبينوا شرعته ، ويبلغوا رسالته ... فلم يشهروا سلاحاً ، ولم يثيروا حرباً ...

* * *

وخرج الرسول من المسجد يسير مع صحبه في أزقة المدينة ، وقد توسطت الشمس كبد السماء ، حتى أشرف على الصحراء . وهناك وقف (حسان بن ثابت) بينهم ينشدهم قصيدته في رثاء قتلى (بئر معونة) ، وبينما هو يقول :

على قتـلى معونة فاسـتهلي ... بدمع العين سحاً غير نزر
على خيل الرسول غداة لاقوا ... ولاقتهم منـاياهم بقـــدر

وإذا بالقوم ينصرفون عن حسان ، ويتطلعون نحو الصحراء ويشيرون بأيديهم نحو خيال فارس بعيد يخب في هذه الرمال المحرقة ، ويمـضي قاصداً (المدينة) فيخفيه النقع الثائر تارة ، ثم تظهره الآكام المرتفعة أخرى ، حتى أصبح قريباً منهم ، وتعلقت أبصارهم به . ولما أن دنا أبطأ في سيره ، وشدّ افرسه العنان ، حتى وقف إزاءهم ، فتصايح الجميع ... عمرو ... عمرو ... والتفوا حوله ، فترجل ثم تقـدم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسلم عليه ، ثم انتقل إلى الأصحاب ، فأدّى لهم التحية ...

وعرف الجميع أنه « عمرو بن أمية الضمري » أحد القرّاء الذين بعثهم الرسول إلى القبائل لتعليم القرآن . وعقدت الدهشة ألسنة الجميع فلبثوا ينظرون إلى عمرو دون أن ينطق أحدهم بحرف وكأنهم لا يصدقون ما رأوا ، وقد أخبروا بأن القراء قتلوا عن آخرهم . . وقطع عليهم حبل الصمت الطويل رسول الله صلى الله عليه وسلم بسؤال عمرو عن مصير القوم وعن صدق مقالة الناس ...

* * *

قال « عمرو بن أمية الضمري » : وذهبنا يا رسول الله إلى حيث أمرتنا ، وسرنا حيث أشرت علينا ، حتى وصلنا « بئر معونة » فبعثنا « حرام بن ملحان » إلى « عامر بن الطفيل » برسالتك فلم ينظر في الكتاب ، بل وثب على حرام فقتله ... واستبطأنا حراماً ، فأقبلنا في أثره ، فلما شـعر بنا « عامر » استصرخ علينا قبائل من بني (سليم ورعل وذكوان) فنفروا معه ، فلما رأيناهم أخذنا سيوفهم ، وقاتلنا حتى قتل إخواني عن آخرهم ، وبقيت وحدي ، أنتظر الموت ... وقد أخذني القوم أسيراً ، فلما مثلت بين يدي (ابن الطفيل) قال لي : قد كان على أمي نسمة فأنت حرٌّ عنها ، وجز ناصيتي وأطلقني عن رقبة زعم أنها كانت على أمه . فلما خرجت إلى المدينة صادفت بمكان يسمى (القرقرة) رجلين نزلا معي في ظل كنت فيه ، فقلت لهما : ومن أنتما ؟... فذكرا لي أنهما من بني عامر ، فتركتهما حتى ناما ثم قتلتهما ثأراً لإخواني الذين قتلوا في (بئر معونة) . ثم عدوت بفرسي نحو المدينة . . حتى وجدتكم هنا ... فغضب رسول الله حين سمع نبأ مقتل العامريين ، ونظر إليه ، وقد ظهر أثر الغضب

فى أسارير جبينه وقال له :

(بئس ما صنعت ! قد كان لهما منى أمان وجوار [1] سوف أدفع ديتهما ...)

* * *

رأى رسول الله أن مصاب المسلمين فى (بئر معونة) جعل المنافقين واليهود فى المدينة يتربصون بهم الدوائر ، ويعملون على الكيد لهم ، وقد ضعفت مكانتهم من نفوسهم ، وقلت هيبتهم فى قلوبهم .. ورجعوا بذاكرتهم إلى انتصار قريش على المسلمين بأحد ... ففكر طويلاً فى أمر (يهود) وأراد امتحانهم ، لتتضح له نياتهم ، ويعلم ما تخفيه أفئدتهم ، فذكر أن اليهود حلفاء بنى عامر ، وأن خير امتحان لهم أن يسألهم معاونته فى دية العامريين اللذين قتلهما (عمرو بن أمية) خطأ ، فعزم على الذهاب إلى (العالية) حيث يقيم (بنو النضير) من اليهود على بُعد أميال من المدينة ...

ولما كان يوم السبت خرج رسول الله إلى مسجد قباء فصلى فيه ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، بينهم أبو بكر وعمر وعلى ... ثم ذهب إلى (بنى النضير) فى العالية ، فأظهروا الفرح بمقدمه ... والسرور لزورته ... ولما ذكر لهم ما جاء فيه تسكافوا الغبطة والبشر وقالوا : تفضل يا أبا القاسم ما أحببت ... وجلس إزاءه بعضهم يتبسطون معه فى الحديث ، بينما انصرف سائرهم إلى ناحية أخرى يتشاورون فيما بينهم على الغدر بمحمد ، والقضاء على صحبه ، وذكروا آنئذ مقتل (كعب بن الأشرف) اليهودى ... وأرادوا أن يثأروا له ... ودخل أحدهم (عمرو بن جحاش) البيت الذى كان رسول الله يستند إلى جواره ، وتبعه ناس آخرون ، ولبثوا داخله طويلا ، يدبرون المكيدة ثم خرجوا وقد عزموا على أن يظهر (عمرو بن جحاش) على البيت الذى يستند محمد إلى جداره فيطرح عليه صخرة يقتله بها ... ورأى رسول الله أمارات الغدر فى عيونهم ، فارتاب فى أمرهم ، وخشى شرهم ، ولذلك انسحب من المجلس تاركا وراءه أصحابه يظنون أنه قام لبعض أمره ... وذهب تواً إلى المدينة ، ولقيه فى ظاهرها بعض اليهود ، وكان قاصداً العالية ... ورآه وهو يتجه نحو المسجد . ولما استبطأ المسلمون الرسول صلى الله عليه وسلم خافوا عليه ، وقاموا فى طلبه ، فلقوا الرجل القادم من المدينة وعرفوا منه أن الرسول دخلها وذهب تواً إلى المسجد ... فلحقوا به ...

* * *

صعد (عمرو بن جحاش) إلى البيت لباقى بالصخرة على محمد وهو يظن أنه ما زال مستنداً إلى الجدار فإذا بذلك اليهودى الذى رأى الرسول فى المدينة يصل فيرى حركة قومه واهتمامهم فاقترب منهم يسألهم عن الخبر ، فأنبؤوه بما عزموا عليه ، وطلبوا إليه ألا يتكلم ... فضحك منهم وقال : الآن رأيت (محمداً) فى ظاهر المدينة ... فماذا تصنعون ؟!.. فأسقط فى أيديهم ، وحاروا فى أمرهم ولم يدروا كيف يعملون ، وأيقنوا أن محمداً سينتقم منهم ولبثوا ينتظرون قضاء الله فيهم ، وقد رجع كيدهم إلى نحورهم وعادت سهامهم إلى صدورهم ... ودارت عليهم الدوائر ...

* * *

وصل الرسول المسجد ، ولبث ينتظر أصحابه فما عتم أن رآهم مقبلين من باب المسجد وقد تشوفت نفوسهم لمعرفة الأمر الذى حدا به إلى مغادرة المجلس فى العالية والقدوم سريعاً إلى المدينة . فلما أنبأهم الخبر ، وأفهمهم نوايا اليهود ، احمرّت منهم الأحداق وثارت منهم الحفائظ ، وغلت صدورهم كالمراجل من الغيظ ... ولما رأى الرسول ما بنفوس أصحابه من الثورة والسخط نظر إلى (محمد بن مسلمة) وقال له : (اذهب إلى يهود بنى النضير ، وقل لهم : رسول الله أرسلنى إليكم ، أن اخرجوا من بلادى فلا تساكنونى بها ... لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم ... بما هممتم به من الغدر بى ... لقد أجلتكم عشراً فمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه ...)

* * *

وقع هذا الإنذار على اليهود موقع الصاعقة ، فتحيروا فى أمرهم ، ولم يجدوا لإنذار (محمد) دفعاً ، ومكثوا أياماً يتجهزون للرحيل حتى جاءهم رسول من عند (عبد الله بن أبىّ) ينصحهم ألا يخرجوا من المدينة ، وأن يقيموا فى حصونهم ، ويعدهم بأن يعاونهم على قتال محمد .. فآمن بهذا قوم ، وكذّب آخرون ،

(١) كان مع العامريين عهد وعقد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم به عمرو .